آفاق الشعر

بقلم الدكتور احمد زكي ابو شادي

ألوان الشعر هي اصلاً ألوان الشعور، سواء أكان بسيطاً ام مركّباً . وكما ان ألوان الشعور لا عداد لها ولا حدود ، فكذلك ألوان الشعر . والشعر المطبوع في لفظه ومعناه وموسيقاه وفيما يخلقه حوله من أخيلة وخواطر وحدة منسجمة . انه كائن فني حي ، والكائن الفني الحي لا يشرّح . يُقرأ او يُسمع ويُستوعب فتحس النفس اثره وبقدر هذا الاحساس تكون استجابتها لذلك الشعر ولصاحبه. ومن ثمّ كان تنوع الاذواق وتنوع الاحكام . فالشعر كفنّ جميل ليس مسألة علمية مقررة ثابتة لا تحتمل الا رأياً واحداً في حدود المعرفة الميسورة ، وانما هو امواج أثيرية كامواج التلفجن Telvision قد يلتقطها الجهاز المستقبل القوي المتقن كما لا يلتقطها سواه . ودرجات الالتقاط تختلف لا باختلاف الاجهزة فحسب ، بل باختلاف المحيط والجو ايضاً . وهكذا نشأت آراء ومذاهب شتى في الشعر تبعاً للاحساس به . وعلينا ان نفترض الاخلاص في كل من هذه الآراء والمذاهب ، وان نعذر اصحابها على تباين آرائهم واحكامهم . اما الذي لا عذر له فهو الانتقاص الذي يزجيه حب الهدم ، واما الذي لا يقدّر فهو التشريح الذي يعبث بالأثر الفني كأنما هو جيفة تحت المبضع !

الاثر الفني إذن يقدر بمجموعه ولا يشرّح . انه يحلق كالطائرة وما يعاب على الطائرة تحليقها وان عيبت عليها سقطاتها خلال طيرانها في جيوب الهواء اي في المحيط الذي تمخر فيه ، ولعل الأولى بالعيب واللوم المحيط ذاته . وهكذا شأن الناقد الأدبي وهو يتطي طائرة الشاعر ، فقد يزعج احياناً بهابط الهواء تلك ، ولكنه لا ينتقص مجهود الطائرة الموفق اجمالاً ، والشاعر المحلق لا يستأهل الطعن الجارح لمجرد هبوط بعض أبياته عن المستوى الشعري لبقية قصيده ، فقد تحوجه الى ذلك اعتبارات وصفية خلال تجربته الشعرية كأنها جيوب الهواء التي تعترض سير الطائرة ، فهي من صنع الهواء اي المحيط لا من صنعه هو .

وليس الشعر وحده الذي يتمثل ألواناً شتى ، بل قد يكون الشاعر نفسه كذلك . فهذا الشاعر المهجري عبد المسيح حداد الذي اشتهر بفكاهته الذكية اللامعة نظماً ونثراً كما سجلتها صفحات جريدته « السائح » النيويوركية والذي سمعناه يقول في سنة الف وتسعمائة وخمسين عن ديمقراطية الدستور الخالصة :

شال خيّطته اصابعك من اوراق الورد .

*

واشتهيتُ ان تكونا قطعتين من حجر ، فأضعهما فوق سريري ، ونسهر ونسمر معاً .

*

عيناكِ شمعتان في كنيسة ، وأغنيتان في خمارة ، وكأنهما ملطختان بالنبيذ المعتّق .

نهد . . .

عندما جاء الصيف ، وطلعت الشمس ، قلتِ لي خذ كوباً واملأه من الضياء ، واسقِ منه نهدي ، ولتشرب منه شفتاك ؛ فيخضرّ نهدي ، وتحمرّ شفتاك ، ويكون لنا بذلك اتحاد الى الأبد .

*

وعندما دعكنا عناقيدنا على المعصرة ، بعد ان رحل تشرين من الكرم، قلتِ لي إصنع بيديك إبريقاً من التراب واقتلِ الفراشات التي تمر ، ولوّنه بدمها ، ثمّ اترعه بالنبيذ ، وأفرغ منه على نهدي ، وأفرغ منه على فمك ، فنتّحد بذلك الى الأبد .

*

وعندما هطل المطر ، وكسا الثلج شبّاكنا ، وسدّ بابنا ، قلتِ لي خذ راحةً من الصقيع ، وامرغ بها نهدي ، وامرغ بها شفتيك ، فيرتجف جسدانا ، ونتحد بذلك الى الأبد .

*

وعندما مرّ الربيع على بستاننا ، صنعتُ حبلاً من النرجس الأصفر ، وحملته اليكِ ؛ فأومأتِ إليّ ان اعقدهُ حول نهدي ، واربطه خلف عنقك ، وأطبق فمك على صدري ، فنتحد بذلك الى الأبد .

*

ولمّا عبرت الفصول ، كنّا متّحدين مع الشمس والتراب والماء ، وكان يجري في عروقنا دم الزهور .

نقولا قربان

إياكِ يا «جمعية التأسيس» ان تُؤخذي بالشيخ والقسيس
لا خير في الدستور يوضع رأسُه بعمامة بيضاء أو قلنوس !

هو بعينه الشاعر المتفلسف في الحب سنة ١٩٤٩ :

يقول الناس : ذا امر عسير وليس على الهوى امر عسير
إذا رغب الهوى في ربط قلب فـلا بَرٌّ يرد ولا بحور
وذا سر الحياة ، وكل فرد لسر حياتـه اعمى أسيرُ !

وهو ذاته الشاعر الحكيم المتأمل الذي قال سنة ١٩١٥ غير ملتزم الاسلوب المدرسي في نظمه :

ماذا الخلود ، وما الوجودْ مَن مُخبري ؟
الحب بينهما نشيـد للأدهـر
لولاه مـا مر الخـلودْ بتَصـوُّري
الحب واسطة التعارف بيننا والآخرة
لولاه ما عذب الجهاد بذي الحياة الحاضره

ماذا نكون ، وما المصيرْ يا ابنَ العبر
الفكرُ للأثنـين نورْ مثـل القمرْ
والكون لولاه ضـرير رغم البصر
نور يضاء به الطريق ومَن يسير بدونه
يبقى بعيداً عن حقيقـة حاله وشؤونه

الموتُ لا يُنْهي أواني في ذي الحياهْ
الموتُ تغييرُ الزمانِ لا مُنتهـاه
فكري وحبي خالدانِ مثـلَ الالهْ
انا بعضُ من نَفَخَ الخلودَ بهيكلي الحياتي
انا بعضه ـ وهو الاله ـ فمن اكون بذاتي؟ ـ إله !

وكما يوجد التعدّد يوجد التخصص ، دون ان يكون في هذا التخصص اي مساس بالمقدرة الشعرية ، وهذا مثلاً مشهودٌ بين الشيوخ في وطنيات رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) الرائعة ، وبين الشباب في الشعر الوصفي الواقعي الشجي لمحمد مفتاح الفيتوري كما نرى في ابياته المعنونة « تحت الامطار » :

« ايها السائق ... رفقاً بالخيول المُتْعَبهْ
قفْ ! فقد أدمى حديدُ السرج لحمَ الرَّقبهْ
قفْ ! فإن الدّرب في ناظرةِ الخيلِ اشتبهْ »
هكذا كان يغنّي الموتُ حولَ العَرَبهْ
وهي تَهوي تحت امطار الدجى مضطربهْ !

غير ان السائقَ الأسودَ ذا الوجهِ النحيلْ
جذب المعطفَ في يأسٍ على الجسم العليـل
ورمى الدربَ بما يشبـهُ انوارَ الأفول
ثم غنّى سوطُه الباكي على ظهر الخيـول

فتلوَّتْ وتهاوتْ ثم سارت في ذهـول !

وفي الشعر الوجـداني المتحرر الوثاب لرضوان ابراهيم مصطفى كما نرى في قصيدته « غَضْبى »[1]

غضبى عليّ ؟ * تُرى أجانِ قلبيَ الحرُّ الوفيْ * إن تغضبي ماذا لديّ ؟ * ألديَّ شيّ ؟ * سوى مدامع مُقلتيّ * تنبيك عن روحٍ وَفيْ ؟ * غضبى عَليّ ؟ * ماذا جنيتُ * وأنتِ ملء غدي ويومي ؟ * حيرانُ ! * تسبقني خُطايَ على خضمٍ مدلهمٍّ * وتضجُّ فيه عواصفي * وتذوبُ فيه عواطفي ! * إن تغضبي ما في يديّ ؟ * لو قلتُ شيّ * ماذا عليّ ؟

★

لكنني اخشى تُمزّقَ حُجُبَ قلبي وحدَتي * وتذوبَ آمـالي وتمضي في طوايا ظُلمتي * غضبى عـليْ ؟ * غضبى ؟... * أناشدكِ الوفاءُ * وأتقي منكِ الجفاءْ * غضبى ؟... * مؤرقة جفوني ، لن تنامْ * لا صلحَ عندي للحياة ولا سلامْ * غضبى عليّ ؟ * إن كنتِ غاضبةً عليْ * فدَعي هوايَ على طريقك ينتحرْ * وإذا الجنازُ يضجُّ باللحن الحزين المحتضرْ * وإذا يمرُّ النعش من تحت المقاصير الخُضُرْ * وإذا سمعتِ نُواحَ انغام الرعاةْ * وإذا شهدتِ مواكبَ تجفو الحياهْ * فهنـاكِ ألقي نظرةً * حيرى على هذا الجسدْ * وهناكِ كُفي دمعةً * كي لا تفيضَ الى الأبدْ * غضبى عليْ * ما تبتغين ؟ * قد غـامَ صفوُ زماننا تحت القتامْ * ماتنْقمين * من ذلك الجسَدِ المسجّى في الرغامْ ؟

والأمثـلة على التخصص وعلى التنـوع في الموضوعات والاساليب وكيفية التناول أكثر من ان تعد اصولاً وفروعاً ومذاهب . وسعيدٌ سعيـدٌ ذلك الأديب أو المتأدب الذي لا يتقيد ذوقه ولا تضيق آفاقه ، فيستمتع بكثير من ضروب الشعر إن لم نقل بجميع ألوانها ، متمثلاً دائماً عواطفَ الشاعر كما يحسّ بأحاسيسه ويستجيب اليه ، فتصبح نفثات الشاعر كأنها من فؤاد القارىء أو السامع ومن صميم وجدانه وخاطره .

إن الانفعالات الشعرية يجب ان تكون الراح التي تذوب فيها الفلسفة والخواطر والتأملات والعواطف ، وكلما عكست هذه الانفعالات بقوة تأثّرَ المشاعر ، وكلما عظمت طاقتُها على الاستيعاب للمرائي والصور والأفكار بدل رضوخهـا لما عداها ارتفعت منزلتها الفنية وطاقتها الشعرية في نظرنا . هـذا هو المقياس الاصولي في اعتبارنا لتقدير الطاقـة الشعرية بغضِّ النظر عن ألوان الشعر التي ستتعدد دائماً ما تعـددت الموحيات والمؤثرات من وجدانية وثقافية واجتماعية وغيرها . والأدب هو الغانم بهذا التعدد ما دام غير مفتعَلٍ ، ومتى كان حليف الاتقان ، باراً بالفن ورسالته للحياة .

---

(١) مجلة (الاديب) البيروتية ، عدد نوفمبر سنة ١٩٥٢